وصف الماء في الشعر الأندلسي –دراسة موضوعاتية–

Description of water in Andalusian poetry - a thematic study-

بخوش دهيليس[1]
جامعة تيسمسيلت
Bekhouch .Dehilis @cuniv-tissemsilt.dz
قدوية يعقوبي
جامعة تيسمسيلت
kadauiayakoubi@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/12/24 القبول 2023/08/07 النشر على الخط 2024/01/15
Received 24/12/2022 Accepted 07/08/2023 Published online 15/01/2024

ملخص:

يدور هذا البحث حول فن المائيات في الشعر الأندلسي حيث ساعدت عوامل مختلفة على نشاط هذا الفن الشعري، وأهمها تنوع البيئة الطبيعية الأندلسية الخلابة، والكثيرة التساقط، بالإضافة إلى النفسية المرهفة للشعراء الأندلسيين، وتمثلت أشكال هذا الفن في المائيات الطبيعية الأرضية، والمائيات الطبيعية السماوية، والمائيات الصناعية.

الكلمات المفتاحية: المائيات، الشعر الأندلسي، الأرضية، السماوية، الصناعية.

Abstract:

This research revolves around the art of water in Andalusian poetry, where various factors helped the activity of this poetic art, the most important of which is the diversity of the picturesque Andalusian natural environment, the many falling, as well as the delicate psychology of Andalusian poets, and the forms of this art were represented in the natural waters of the earth, the natural heavenly waters, and industrial water.

.

Keywords: *Aquatics, Andalsi hair, floor, celestial, industrial.*

[1]– المؤلّف المراسل: بخوش دهيليس البريد الإلكتروني: **Bekhouch . Dehilis @cuniv-tissemsilt.dz**

مقدمة :

فتح العرب جزيرة الأندلس سنة 92هـ، " وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث، وتضيق من ناحية شرق الأندلس، حتى تكون بين البحر الشأمي، والبحر المظلم، وبيئة المحيط بالأندلس"[1]، وبعد هذا الفتح وجد العرب أنفسهم أمام بيئة مزدهرة ثرية بأنواع الجمال الأخاذ، والسحر الفتان، فمالت أشعارهم إلى وصفها وبيانها، وكان للطبيعة الأندلسية أثر بليغ في نشأة شعر الطبيعة.

ونال وصف الطبيعة قسطا وافرا من الاهتمام نتيجة لتفاعل الشاعر الأندلسي مع طبيعته الخلابة، وبيئته الجميلة التي تأسر الطرف، وتستسبي الخيال، وتستهوي الأفئدة حيث يعمل الشاعر الأندلسي على " إحلال كل ما في نفس الإنسان، وقلبه، وعقله من مشاعر في الطبيعة، ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع، فالطبيعة غير مقصودة لذاتها، والأدب الجميل هو مزج تفكير الإنسان ومشاعره، بما في الطبيعة من تصوير وتوقيع"[2].

وانطلاقا من التمهيد السابق تتبادر إلينا التساؤلات التالية: كيف تميز الشعر الأندلسي في مجال وصف المائيات؟، وهل يمثل هذا التميز تجديدا حقيقيا؟، أم هو مجرد رؤية جديدة فرضتها بيئة جديدة؟، وللإجابة عن هذه التساؤلات السابقة اعتمدت منهجا وصفيا تحليليا، لإبراز أشكال ومضامين شعر المائيات في القصيدة الأندلسية، ولنفي تهمة تبعية الشعر الأندلسي لنظيره المشرقي.

1. أسباب ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس :

وبعد فتح بلاد الأندلس وجد العرب أنفسهم أمام بيئة مزدهرة ثرية بأنواع الجمال الأخاذ، والسحر الفتان، فقد " خص الله بلاد الأندلس ما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها"[3]، فهي "مطلع شموس العلوم وأقمارها، ومركز الفضائل، وقطب مدارها، أعدل الأقاليم هواء، وأصفاها جواً، وأعذبها ماءً، وأعطرها نبتاً، وألذها ظلالاً، وأطيبها بكراً مستعذبة وآصالاً"[4].

ومالت أشعار الشعراء إلى وصف الطبيعة وبيانها، حيث للطبيعة الأندلسية أثر بليغ في نشأة هذا النوع من الشعر، والذي يعد مرآةً عاكسة لطبيعة الأندلس الجميلة.

وساهم تطور الحياة في بلاد الاندلس، وازدهار الحضارة العربية هناك ازدهاراً واسعا في حركية شعر الطبيعة، والذي شمل جميع نواحي الحياة الأندلسية، حيث" كان الأمويون، وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفين
على الشرق موطن الجنس، والدين، واللغة، والأدب، والحضارة فيسيرون على ضيائه، ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين، فشيدوا المدارس الجامعة، وأنشأوا المكاتب العامة ونشطوا حركة التأليف، وأذكوا نهضة الأدب، ورفعوا مجد الفنون، وعقدوا مجالس المناظرة، والمسامرة، والغناء، بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (206هـ – 238هـ)[5].

---

[1] الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط02، 1988م، ص 02.

[2] رفعت التهامي عبد البر، شعر الطبيعة بين المشارقة والأندلسيين (عرض وتحليل ونقد وموازنة)، القاهرة، ط1، 1992م، ص480.

[3] شهاب الدين أحمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، 1980م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، المجلد الأول، ص 61.

[4] عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1947 م، ص 115.

[5] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، دس، ص 312.

وازدهر شعر الطبيعة نتيجة لنشاط مجالس الأنس والطرب، والمنافسة الحادة بين الخلفاء والأمراء فيما بينهم على عقد هذه المجالس، وكانت هذه المجالس تقام في الغالب بين أحضان الطبيعة.

ومن أسباب نشاط شعر الطبيعة براعة عرب الأندلس في مجال العمران والبناء، والذي عانق جمال الطبيعة في بلاد الأندلس، حيث لم يكتف العرب الأندلسيون بهذا الجمال الطبيعي، بل برعوا في التنظيم، والتنسيق، والبناء والإعمار، وتنافس الأمراء والخلفاء في هذا الميدان.

2. المائيات في الشعر الأندلسي:

يرجع جمال الطبيعة الخضراء الأندلسية الخلاب أساسا إلى وفرة الماء، من أمطار غزيرة، وأنهار وفيرة، وعيون ثرة، وآبار كثيرة، فهذا الجمال ساعد الشعراء على الإبداع، وجعلهم يرصدون كل شيء جميل يتعلق بها، ورسمه في أشعارهم، بطرق فنية تسحر الألباب، وتسبي النفوس، ووصفوا المائيات بمختلف صورها، ومنها الطبيعية والصناعية.

1.2 المائيات الطبيعية الأرضية:

1.1.2البحر

يعد البحر من العناصر التي وصفها شعراء الأندلس، كيف لا وهو من العناصر المشكلة لجزيرة الأندلس، والمحددة لها من ثلاث جهات.

والحقيقة أن البحر لم ينل حظا كبيرا من الوصف لدى شعراء الأندلس على الرغم من ارتباط حياة الأندلسيين به، ومعرفته له، وربما هذا عائد إلى النظرة السلبية له، لأنه يرتبط بالخطر والهلاك، خصوصا أثناء هيجان أمواجه، وتلاطمها، وفي هذا الميدان يقول ابن حمديس:

"أراك ركبت في الأهـوال بحرا عظيما ليس يؤمن من خطوبه
تسيـر فلكـه شـرقا وغربـا وتدفع من صباه إلى جنوبـــه
وأصعب من ركوب البحر عندي أمور أجـأتـك إلى ركوبـــــه"[1]

ولا يخرج ابن خفاجة عن الإطار السابق حين يربط البحر بالهلاك، فيقول:

"يا مادح البحر وهـو يجهله مهلا فإنني قتلته علما
فائدة مثـل قعـره بعـدا ورزقه مـثل مابه طعما"[2]

وفي موضع آخر يصف ابن حمديس صبيا يغرق، وهو يطلب النجدة بين الموت والحياة، فيقول:

"وسابح لاعـب في بـحره مرحـا تشير كفـاه تعويـذا من الغـرق
يدعو ولم يكن مظطرا: خذو بيدي وعنده الفـرق بين الأمـن والفـرق
فإن بكيت فإني قد ذكـرت بـه من جرعت منه كاس الموت بالشرق
ردت على البحر من كـفي جوهـرة ثم انقلبت بقلـــب دائـم الحـرق"[3]

[1] ابن حمديس، الديوان، رفعه عبد الرحمن النجدي، صححه وقدم له إحسان عباس، جامعة الخرطوم، دار صادر، بيروت، دس، ص08.
[2] ابن خفاجة، الديوان، تحقيق، عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006م، ص 180.
[3] ابن حمديس، الديوان، ص324.

2.1.2النهر

افتتن شعراء الأندلس بالأنهار مثلما افتتنوا بباقي عناصر الطبيعة الأخرى، والملاحظ في أشعارهم غلبة وصف الأنهار، لأنهم كانوا يعيشون في بيئة كثرت فيها الجداول، والأنهار، والبحيرات، والعيون العذبة، فقد قيل إن المسافر في الأندلس" لا يتزود فيها أحد ماء، حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد المعاقل، والقرى ما لا يحصى، وهي بطاح خضر، وقصور بيض"[1].

وهناك العديد من الأنهار المشهورة في بلاد الأندلس، ومنها" نهر إشبيليا الأعظم الذي تنصب فيه قبل وصوله إلى إشبيليا أنهار كبيرة، فيعظم حتى يصير بحرا"[2] .

ويعد ابن خفاجة من الشعراء الذين أبدعوا في وصف النهر، فقد" نوه القدامى والمحدثون ببراعة ابن خفاجة الأندلسي في وصف الأزهار، والرياض، والأنهار"[3] ، وها هو يصور نهرا بأسلوب أنيق، وتشبيهات حسية مجسدة للمعنى، فيقول:

"لله نهـر سـال فـي بطحـــــاء أشهى ورودا من لمــى [4] الحسناء
متعطف مثل السـوار كأنـــــه والزهر يكنفـه مجـــــر السمـاء
قد رق حتى ظـن قـرصا مفرغا من فضــة في بـــــردة خضـراء
وغدت تحف به الغـصون كأنهـا هدب تحـف بمنقلـــــة زرقـــاء
والريح تعبث بالغصون وقد جـرى ذهب الأصيل على لجين المـــاء"[5]

ويصف ابن حمديس نهرا جمع محاسن الجمال، وقد زاره ليلا، وانعكست نجوم الليل على صفحة مائه الجاري كأنها درر، وبعدها يلوح في الأفق نور الصباح، معلنا أفول نور النجوم، لتبزغ الشمس مرسلة رماحها، لتحول فضية النهر إلى ذهب أصفر لماع، فيقول:

"ولابس نقب الأعـراض جوهره له انسياب حباب رقشه الحبب
إذا الصبا زلـقت فيه سنابكها حسبته منـــصلا في متنه شطب[6]
وردته ونـجوم الليل مائـــــلة كما تدحـرج در مـــاله ثقـــب
ومغرب طـعنته غير نابيـــــة أسنة هي إن حـققتـها شهـب
ومشرق كـيمياء الشمس في يده ففـضة الماء من إلقائها ذهـب" [7]

---

[1] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1988م، ج1، ص209.

[2] أحمد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 461.

[3] طاهر سيف غالب، الروضيات في الشعر الأندلسي، ج2، دروب ثقافية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2013 م، ص 54.

[4] لمى: إذا اسودت شفته، انظر ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، دط، 1955م، مادة لما، ص 4081.

[5] ابن خفاجة، الديوان، ص 13- 14.

[6] شطب: السيف سل من غمده، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة شطب، ص 2261.

[7] ابن حمديس، الديوان، ص25.

3.1.2السيل

كانت شبه الجزيرة الأندلسية ذات شبكة مائية غزيرة، من خلال تنوع أنهارها، ووديانها، وعيونها وغدرانها، وهذه المصبات لا تدوم على حال، فهي تتأثر بكمية التساقط سلبا وإيجابا، من خلال زيادة أو نقصان منسوبها من جهة، وثباتها وحركيتها من جهة أخرى، فعندما ينزل المطر، ويستمر لأيام، يتحول إلى سيل عرم يجرف، ويخرب كل ما يجده أمامه، خاصة عندما يصل إلى درجة فيضان مرعب، وهذا ابن خفاجة يصف مطرا هطولا بقوله:

"ألا طم بـحر أتـي طمـا وجد انكفاء سمـاء تجـود
فأهوت تـخر هناك البـنى كما تتلقى المـلوك الوفـود
وباتت كأن عـليها صلاة فبعض ركوع وبعض سجود"[1]

فالسيل في نظر ابن خفاجة بحر عباب طام، جادت به السماء، فحاصر الناس، وجرف المباني، ودمر المنشآت، وجعل من المدينة تعيش حالة فوضى وخراب، وكأن مبانيها في لحظات سقوطها، وانهيارها تستقبل الملوك، وهي منحنية خاشعة، كأنها في صلاة ما بين ركوع وسجود.

ويواصل ابن خفاجة إبداعه، ورسمه الاحترافي حين يرسم لنا لوحة فنية أخرى لمخلفات سيل، ولكن بطريقة فيها روح الخفة والدعابة، فيقول:

" أما ومسيل ماثل الغيث كالسـطر كما أتـرع الساقي الزجاجة بالخمـر
لقد بت بين الـرعد والقطر أشتكي بسمعي من وقـر وظهري من وقـر
وأسـقيتها من ديمـة إثـر ديمـة فمالت بها الجدران سطرا على سطـر
فمن عارض يسقي، ومن سقف مجلس يغني ومن بيت يميل مـن السكـر"[2]

فالشاعر يصف السيل بروح الفكاهة والدعابة، وبشيء من المرح والبهجة، ويصور صورة المطر المنهمر الغزير، وقد غمر الأرض والقيعان حتى فاضت بالسيل، كأنه ساق يملأ الكأس خمرا، وقد فاضت به، وهو سيل نتيجة لأيام من نزول المطر، مما سبب لهم انهيار بيوتهم، ودمار ممتلكاتهم، حتى أن أسقفهم وجدران مبانيهم تنهار سكرى منتشية على أنغام الدمار والهلاك.

والوصف السابق يمنح ابن خفاجة لقب وصاف الطبيعة المرح، فالملاحظ على أشعاره عموما ندرة الوصف القاتم العابس،" فلا تكاد تجده يصف منظرا محزنا، أو شيئا قبيحا، أو يصف نفسا منقبضة، أو يتكلم عن بؤس الأيام، وأهوال حوادثها، فشعره صورة لحياته النفسية، المملوءة بالسرور، والإعجاب بالجمال"[3].

---

[1] ابن خفاجة، الديوان، ص 102- 103.

[2] المرجع السابق، ص 136- 137.

[3] أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، أحمد ضيف، المفصل في تاريخ الادب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة، تقديم حسان الحلاق، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، ص351.

3.1.2الجدول

كانت بلاد الأندلس غزيرة المياه، كثيرة الجداول، نتيجة لكثرة الأمطار المتساقطة، والثلوج الذائبة، بل عمد كبار أهل الأندلس، وأصحاب الجاه والسلطان إلى بناء قصورهم وديارهم على جوانب الجداول، ليستأنسوا بخريرها العذب، ولتسقي حدائقهم ورياضهم، وليتنفسوا نسيمهم العليل الذي تنشرح له الصدور، وتنبسط له النفوس.

وكانت مجالس الأنس والطرب في بلاد الأندلس تنعقد في الجنان الخضراء، تخترقها الجداول الرقراقة، وحين تتقاطع الألوان في اتساق وانسجام، تحدث البهجة والطرب في النفوس، وفي هذا الشأن يصف ابن حمديس مجلس أنس وطرب وفق المقاييس السابقة، فيقول:

" إذا قبض الإبريق منه سلافة تقسمها الشراب حوليه بالقعب[1]
شربنا وللإصباح في الليل غرة تزيد انديا حا بين شرق إلى غرب
على روضة تحيا بحية جدول يفيء عليه ظل أجنحة القضب
بأزهر يجلو اللهو فيها عرائسا كراسيها أيدي الكرام من الشرب"[2]

فالشاعر يصف لحظات الشرب والانتشاء الممتدة من ليل مظلم، يهجم عليه الصبح مخترقا الأفق، والشمس بارزة بنورها الوهاج في روضة أنيقة، يمدها الجدول بماء يحيي البساتين، وينور الأزهار، ويطيب الشجر، وأزهر كأنها عرائس في يوم فرح.

وهذا ابن خفاجة يصف في منظر بهيج أراكة على ضفة جدول، فيقول:

"وأراكة ضربت سماء فوقنا تندى وأفلاك الكؤوس تدار
حفت بدوحتها مجرة جدول نثرت عليه نجومها الأزهار
وكأنها وكأن جدول مائها حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة تجلى ونوار الغصون نثار"[3]

فالشاعر يجعل من الأراكة خيمة، ضربت على رؤوسهم بظل وارف، غطى جوانب الجدول، والذي ملأت الأزهار المتساقطة مجراه، فكأن نجوم السماء ساقطة على صفحة الماء، حتى صار هذا الجدول كالحزام الذي يشد على خصر الحسان، وكأنها عروس تزف على وقع الأزهار المتناثرة.

ونجد ابن خفاجة يطلق تسميات لبعض الأشجار: " كالسرح، والأيك، والأراك، فإن ذلك امتثالا للتقاليد الكلاسيكية، فأنواع الأشجار هذه تنبت في جزيرة العرب، لا في الأندلس، ولذلك يسمي الأشجار هنا من باب التقليد" [4].

[1] القعب: القدح، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة قعب، ص 3685.
[2] المرجع نفسه، ص19.
[3] ابن خفاجة الديوان، ص136.
[4] طاهر سيف غالب، الروضيات في الشعر الأندلسي، ص57.

2.2المائيات الطبيعية السماوية

1.2.2البرد

تنوعت تضاريس بلاد الأندلس الخلابة من حقول خضراء، وبساتين مثمرة، وحدائق غناء، ومياه جارية، والمطر فيها دائم، يقل ويزيد حسب فصول العام، وهذا المطر قد يتحول إلى حبات البرد الذي يزين الأرض والساحات عند نزوله، كأنه حبات لؤلؤ ساقطة من السماء، وفي هذا الوصف يقول ابن حمديس:

" نثر الجـو على الأرض برد أي در لنـــحور لو جـــمد
لؤلؤ أصـدافه السحب التي أنجـز البارق منها ما وعـــد
منحته عاريا مـــن نكـــد واكتساب الدر بالغوص نكد
ولقد كادت تعاطى لقطـــه رغبة فـيها كريمات الخـــرد"[1]

فالشاعر هنا يقف منبهرا مذهولا أمام هذا التحول الفجائي للطبيعة، والتي اكتست حلة بيضاء بعدما كانت خضراء، وذلك بفعل حبات البرد المتساقط من السماء، كأنه لؤلؤ جادت به أصداف السحب، لتلقيه عاريا، بل يوهم الناس أنه اللؤلؤ الطبيعي الصافي، فيهموا لجمعه ليثقب، ويوضع على أعناق الغيد، ولكنه سرعان ما ذاب كالحلم السريع، فجرت منه السيول والجداول، وهي تتمايل كالثعابين.

ويبدع ابن خفاجة في وصف سقوط حبات البرد على الأرض، فيقول:

"يارب قـطر عـاطـل حلـى بـــه نحر الثرى بـرد تحدر صـــــائب
حصب الأباطح منه مـــاء جامـــد غشى البـــلاد به عـذاب ذائب
فالأرض تضحك عن قلائد أنجم نثرت بها والجـو جهـــــم قاطب
فكأنما زنـــت البسيطـــــة تحتـه فأكب يرجمها الغمـــام الحاصب"[2]

فالشاعر يرسم لوحة بديعة لتساقط حبات البرد على نحر الأرض، فقد وهبت الطبيعة هذا النحر قلائد اللؤلؤ من فصوص البرد، بل إن السماء ترمي الأرض بالحصى الجامد المتمثل في البرد، والأرض جذلانة كاشفة عن أسنانها البيض، مما تساقط عليها من السماء، والسماء عابسة متجهمة، ويذهب الخيال بالشاعر إلى أبعد الحدود، حينما يجعل من الأرض كالزانية، وحدها الرجم بحبات البرد.

2.2.2الثلج

إن الثلج إذا كسا الأرض يبعث في النفوس البهجة والسرور، حين يكون كالقطن المندوف، فيعم الصفاء والنقاء، فتغتسل الطبيعة من أدرانها، ويبعث فيها الحياة، ويجدد فيها الأمل، فيلتفت الناس في لحظات انفعال على هذا الجمال الرباني، فتطرب العقول، وتستثار النفوس، فتهيج المشاعر لتعبر الألسن على هذا الجمال.

وإذا كان وصف الثلج ظاهرة قديمة في الشعر المشرقي، فإنه ظاهرة متميزة في الشعر الأندلسي، " فالثلجيات بدأت في الأندلس متأخرة كحالها في المشرق، ومن الطريف أن أول من أنشأ شعرا في الثلج هو ابن خفاجة الذي كان يلقب بصنوبري الأندلس، لغرامه بالطبيعة، وهيامه بها، وقول الشعر الرقيق الأنيق في وصفها"[1].

[1] ابن حمديس، الديوان، ص 116-117.
[2] ابن خفاجة الديوان، ص29.

وأرض الأندلس بها جبال كثيرة، لا يفارقها الثلج طيلة فصول السنة، حيث يطل على غرناطة " الجبل المسمى بشلير، الذي لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفا، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد"[2].

وهذا ابن خفاجة يصف ليلة شديدة القر، كسا الثلج فيها أغصان الأشجار، فيقول:

" ألا فضلت ذيلها ليلة تجر الرباب بها هيدبا[3]
وقد برقع الثلج وجه الثرى وألحف غصن النقى فاحتبى
فشابت وراء قناع الظلام نواصي الغصون وهام الربى
فمهما تيممت خمارة ركبت إلى أشقر أشهبا"[4].

فالشاعر يصف هذه الليلة التي لسعه بردها، ليوقظه تأمل بياض الثلج، وقد نزل الغمام بتلك الليلة إلى الأرض التي كسيت ثلجا، غطى محاسنها كما يغطي الثلج وجه الحسناء الفاتنة، ورغم هذا الجو القارس إلا أن الشاعر يغتنم لحظات المتعة في شرب الخمرة، والانتشاء بها.

3.2.2المطر

بيئة الأندلس بيئة يكثر فيها الماء الناتج في أغلبه عن سقوط المطر الذي تحمله السحب، فالسحاب والمطر ثنائية متلازمة في أغلب الأوقات، وبعض الأماكن في الأندلس لا يخطئها السحاب في غالب الأوقات ، فهناك" جبل من جبال جيان، إذا تبايع أهلها أموالهم فيه، شرطوا أنه في مجرى السحاب، لأن هذا الجبل في مكان لا يكاد يخطئه السحاب بالرياح المختلفة، فهم يغالون فيه لهذه الخاصية"[5].

ووصف شعراء الأندلس السحب والديم مثلما يقول ابن حمديس:

" ومديمة لمع البروق كأنما هزت من البيض الصفاح متونا
وسرت بها الريح الشمال فكم يد كانت لها عند الرياض يمينا
صرخت بصوت الرعد صرخة حامل ملأت بها الليل البهيم أنينا
حتى إذا ضاقت بمضمر حملها ألقت بحجر الأرض منه جنينا
قطر تناثر حبه فلو أنه در تنظمه لكان ثمينا" [6]

وصف ابن حمديس السحابة الممطرة، ذاكرا البرق الذي لا يأتي معها، بل شخص السحابة بامرأة حامل، انتفخ بطنها، وهي تئن، وتصرخ من ألم المخاض، حتى ضاقت بالسحاب، وألقت بحملها، أو بالأحرى قطرها على الأرض الذي تزينت به.

والقطر يحيي الأرض بعد موتها، وينشر الحياة على وجه المعمورة، فهو نعمة من نعم الله على خلقه، والمطر يحرك وجدان الشعراء، ويوقظ أحاسيسهم، فهذا ابن خفاجة يصف المطر بقوله:

---

[1] مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 2005م، ص 320.

[2] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 177.

[3] هيدبا: السحاب الذي يتدلى ويدنو، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة هدب، ص 4629.

[4] ابن خفاجة، الديوان، ص37-38.

[5] الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1988م، ص 71.

[6] ابن حمديس، الديوان، ص 490.

"من ليلة للرعد فيها صـرخة لا تستطاب وللحيـا إيقـاع
خلعت علي بها رداء غـمامـة ريح تهلهله هنـاك صنـاع
والصبح قد صدع الظلام كأنه وجه وضيء شف عنه قنـاع
فرفلت في سمل الـدجى وكأنما قزع [1] السحاب بجانبيه رقـاع"[2]

فالشاعر يصف ليلة ممطرة على إيقاع هزيم الرعد، الذي تناغم مع سقوط المطر، ليأتي الصبح منير الوجه، وكأنه مغتسل بالمطر المنهمر الصافي.

3. المائيات الصناعية

أبدع شعراء الأندلس في وصف الصور الحضارية للمجتمع الأندلسي، بعد الحكم الإسلامي لهذه البلاد،" فعندما وصل المسلمون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، كانت تحفل بكثير من آثار العمارة التي تعود لحضارات مختلفة كالإيبيرية والرومانية، بعض هذه الآثار ذات وظيفة دينية كالمعابد، وبعضها ذات وظيفة دفاعية كالقلاع والحصون، ومنها ذات الوظيفة المدنية كالقصور، والمسارح ،والقناطر، ونحوها"[3].

1.3البرك

سعى الأندلسيون إلى استغلال مياه الأمطار، من خلال حفظها في البرك والنوافير، وغيرها، لتخدمهم في حياتهم اليومية، لأنها تساهم في تلطيف الهواء، وتعديل الجو، وتزين هذه البرك بالتماثيل، وتغرس الأشجار على حوافها.

وتنافس الأمراء والحكام في تشييد البرك، " فكان للمعتصم بن صمادح بركة بناها في الصماد حية، وقد حضر في مجلسه أعيان الوزراء، ونبهاء الشعراء، وهو قاعد على موضع يتداخل الماء فيه، ويتولى في نواحيه، فقال:

انظر إلى حسن هذا الماء في صببه كأنه أرقم قد جد في هربه
فاستبدع الكل قوله، فخلع عليهم، ومنحهم فضله وطولـــه"[4]

وفي هذا المقام يصف أبو محمد المصري القصر العظيم، والذي شيده ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون، والبركة التي فيه، فيقول:

" قصر يقصر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السـعادة تعقـد
وكأنما المأمـون في أرجائـه بدر تمـام قابلتـه أسعـد
وكأنما الأقـداح في راحتـه در جماد ذاب فيه العسجـد"[5]

فالشاعر منبهر بجمال القصر، وبجمال البركة المزينة بالذهب، والزجاج، والماء نازل من أعلى قبتها، والمأمون في وسطها، كأنه بدر منير في الليالي العاتمة، يقابله اليمن والسعد، وقدح الخمر في راحته، كأنها در ذاب فيه الذهب.

---

[1] قزع: قطع من السحاب رقاق، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة قزع، ص 3621.

[2] ابن خفاجة الديوان، ص200.

[3] إبراهيم محمد حسنين، تاريخ الإسلام في الأندلس، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2014م، ص 28.

[4] ابن دحية الكلبي، المطرب من أشعار المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج2، 1955م، ص 36.

[5] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 528.

وفي موضع آخر يصف ابن وهبون بركة، تحفها أزهار النيلوفر، فيقول:

"وبركة تزهــى بنيلــوفــر نسيمه يشبــــه ريــح الحبيــب
حــتى إذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لحين الغروب
أطلـق جفنيه على إلفــه وغاص في الماء حــــذار الرقيب" [1]

فالشاعر يصف البركة، وهي مزهوة بأزهار النيلوفر، ذات الرائحة الزكية، التي تشبه ريح الحبيب، الذي يحلو وصله في المساء، مثله مثل الأزهار التي إذا حان الغروب اختفت في الماء، وغاصت فيه خوفا من أعين الرقباء والحساد.

2.3النوافير

تلازم النوافير البرك في الكثير من الأحيان، لأنها تقذف الماء من أفواه التماثيل غالبا إلى داخل البركة، وتفنن الأندلسيون في صناعة النوافير داخل القصور، والبيوت، والحدائق، والمساجد، وقاموا بزخرفتها وترصيعها بالأحجار الكريمة، وهناك من جعلها تماثيل حجرية مذهبة، واختلفت قوة دفع الماء فيها بحسب طبيعة مخارجها، والمصدر الذي تستمد منه الماء.

وأبدع ملوك الطوائف في بناء القصور في أحضان الطبيعة، وقد زينوها بروائع الهندسة، وبالتحف والتماثيل النادرة التي تستهوي الأفئدة، وتأسر النفوس، فكان المعتمد بن عباد يجلس على بركة له، " والماء يجري من الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، والوزير أبو بكر الملح[2] عنده، فصنع الوزير فيهما مقاطيع بديها، ومنها قوله:

"ومشعلين من الأضواء قد قرنــــا بالماء والماء بالـــدولاب منزوف
لاحا لعيني كالنـــــجمين بينهما خط المجرة ممدود ومعطـــوف"[3].

ومن الروائع في وصف النوافير والبرك قصيدة لابن حمديس، ومنها قوله:

"وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيــه زئيــرا
فكأنما غشى النظار جسومها واذاب في أفواهــها البلـــــورا
وتخالها والشمس تجلو لونهـــا نارا وألسنـها اللواحس نــورا"[4]

وصف ابن حمديس القصر، والبركة المزخرفة، والتي تزينها الأشجار، وقد علقت عليها القناديل المصنوعة من الذهب، ونصب حول البركة تماثيل على شكل أسود، تدفع الماء من أفواهها، حتى ليخيل للناس أنها أسود حقيقية.

3.3السفن

تعد السفن من أهم وسائل النقل التي توصل الإنسان إلى مبتغاه في أقرب وقت، واستعملها الأندلسيون للتنقل بين الجزر الأندلسية، والشمال الإفريقي، ومنهم من كان يهاب ركوبها لارتباط البحر في نظره بالخطر والهلاك.

وهذا ابن حمديس يصف سفينة تقطع البحر، والربان يقودها بكل حيطة وحذر:

---

[1] محمد شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1974م، ص 251..

[2] الوزير الفقيه أبو بكر محمد بن اسحاق اللخمي من اهل شلب، يعرف بابن الملح وابن الملاح، توفي في رمضان، عام 500هـ.

[3] المقري، نفح الطيب، ج4، ص 263.

[4] ابن حمديس، الديوان، ص 494.

"وقد تشق بنا الأهوال جارية تجري بريح متى تسكن لها تقف
لها شراع ترى الملاح يلـــحظه ككاهن يقسم الألحاظ في كتف"[1]

وتكون السفن وسيلة يركبها الناس، فيودع بعضهم البعض مثلما فعل ابن اللبانة مع المعتمد بن عباد، وهو يركب السفينة مأسورا، فقال:

"حان الوداع فضجت كـــل صارخة وصارخ من مفـــداة ومـــن فـــاد
سارت سفائنـهم والنوح يصحبهـــا كأنهـــا إبـل يحـــدو بها الحـــادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قـطعـــات أكبـاد
من لي بكم يابـني ماء السمـــاء إذا ماء السماء أبى سقي الحشي الصادي"[2]

فالشاعر يودع المعتمد بن عباد، على شاكلة السابقين من حيث الحسرة والألم، وهذا الموكب يقطع البحر على ظهر السفن، لا على متن الإبل كما فعل القدامى.

ولم تكن السفن وسيلة للنقل والسفر فحسب، بل كانت تستعمل في الأساطيل البحرية مدججة بالأسلحة والرجال، وقاذفة بالنار تحمي السواحل، وتقهر الأعداء، لترسي السلم والسلام، وهذا ابن وهبون يصف اسطولا بحريا، فيقول:

"يا حسنها يوما شهـدت زفافـها بنت الفـضاء إلى الخليـــج الأزرق
ورقاء كانـــت أيكـــة فتصـورت لك كيف شئت من الحمام الأورق
زأرت زئير الأسد وهي صوامـــت وزحفن زحف مـواكب في مـــأزق
ومجادف تـحكي أراقم [3] ربـــوة نزلت لتكرع من غدير متـــأق"[4]

يبدي ابن وهبون إعجابه، وانبهاره بسفن الأسطول، وما حوته من صنعة، وشدة في الحروب، ويتعجب من بديع صنع السفينة التي كانت في أولها شجرة، لتصير سفينة تمخر العباب، وتصدر صوتا مرعبا كزئير الأسود، وإذا سكنت الريح استخدموا المجاديف التي تشبه الأفاعي، وهي تخرج من الجحور لتشرب الماء.

[1] ابن حمديس، الديوان، ص 320.
[2] ابن لبانة الداني، الديوان، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2008م، ص 61.
[3] أراقم: الأرقم من الحيات الذي فيه سواد وبياض، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة رقم، ص 1709.
[4] المقري، نفح الطيب، ج04، ص 60.

4.خاتمة

وبعد هذا العرض الموجز لهذا المقال توصلت إلى بعض النتائج أهمها:

– انتقل العرب والمسلمون الفاتحون لبلاد الأندلس ومعهم زادهم الشعري، ولكنهم لم ينقلوا معهم بيئتهم الجغرافية فصعقوا لرؤية الطبيعة الخلابة في بلاد الأندلس لأول مرة.

– نال وصف الطبيعة حظا وافرا من الاهتمام نتيجة لتفاعل الشاعر الأندلسي مع بيئته الطبيعية الفاتنة.

– تعددت عوامل نشاط شعر الطبيعة من طبيعية تمثلت في جمال البيئة الأندلسية، وبشرية نتيجة لازدهار الحضارة العربية، ونشاط مجالس الأنس والطرب، والمنافسة بين الخلفاء والأمراء لتشجيع عقدها.

– وصف شعراء الأندلس البحر في مواضع قليلة رغم ارتباط حياتهم به، لأنه يرتبط بالخطر والهلاك خصوصا أثناء الهيجان.

– برع شعراء الأندلس في وصف الأنهار، وأكثروا منها نظرا لكثرتها في بيئتهم، وكثرة الجداول، والبحيرات والعيون العذبة.

– يرمز السيل لدى معظم شعراء الأندلس إلى الفوضى والخراب، وهناك من وصفه بروح الفكاهة والدعابة.

– افتتن شعراء الأندلس بالجداول، فوصفوا القصور القائمة على جوانبها، ومجالس الطرب التي تعقد على أطرافها.

– يقف الشاعر الأندلس منبهرا مذهولا عند سقوط حبات البرد، ليخرج تساقطه في صور أنيقة.

– يرمز الثلج إلى الانتشاء، والفرح أحيانا، وإلى الكآبة، والحزن أحيانا أخرى.

– تنافس الأمراء والحكام في تشييد البرك، والنوافير، وأبدع الشعراء في وصف أشكالها، وتبيين تأثيراتها على النفوس.

– وظف الشعراء الأندلسيون الطبيعة توظيفا حسنا ساهم في إثراء المعاني والصور.

– اعتمد الشعراء على التشخيص المعنوي، وبث الحياة في الموصوفات.

5. قائمة المراجع:

– ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، دط، 1955م.

–الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط02، 1988م.

– عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1947 م.

– محمد شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1974م.

–إبراهيم محمد حسنين، تاريخ الإسلام في الأندلس، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2014م.

–ابن حمديس، الديوان، رفعه عبد الرحمن النجدي، صححه وقدم له إحسان عباس، جامعة الخرطوم، دار صادر، بيروت، دس.

–ابن خفاجة، الديوان، تحقيق، عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006م.

-ابن دحية الكلبي، المطرب من أشعار المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1955م.
-ابن لبانة الداني، الديوان، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2008م.
أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، أحمد ضيف، المفصل في تاريخ الادب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة، تقديم حسان الحلاق، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط02، 2004م.
-أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، دس.
-المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج 1، 1988م.
-رفعت التهامي عبد البر، شعر الطبيعة بين المشارقة والأندلسيين (عرض وتحليل ونقد وموازنة)، القاهرة، ط1 1992م.
-شهاب الدين أحمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، 1980م، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، المجلد الأول.
-طاهر سيف غالب، الروضيات في الشعر الأندلسي، ج2، دروب ثقافية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2013 م.
-مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 2005م.